



من سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه، وسننه في المجتمعات البشرية أن الأمر العظيم لا بد له من إرهاصات ومقدمات تهيئ له وتعين من يحمله على تحمل الأعباء الكبيرة. وقد قال الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم "إنا سننقي عليك قولاً نقيلاً" ولذلك كانت هناك إرهاصات وتمهيدات لهذه النبوة وهذه الرسالة، ومنها: الرؤيا الصادقة فكان لا يرى صلى الله عليه وسلم رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب إليه التحدث في غار حراء مبتعداً عن الناس وعن أجواء الوثنية. وجاء في الحديث أنه كان في مكة حجر يسلم عليه، يقول: السلام عليك يا رسول الله.. بل إن اختياره من بنى هاشم ومن قريش ومن العرب كان مقدمة لأن يحمل هذا الجيل من العرب الرسالة لأنهم كانوا أقرب للفطرة وأبعد عن ذل وسطوة الطغيان وفيهم ذكاء وأخلاق عالية فكانوا مهيئة لحمل الرسالة .

#### وهذه السنة واضحة في الأمثلة التالية:

**1 - التدرج في البلاغ :** لقد بدأ بالأمر البسيط (اقرأ) ثم (قم فأنذر) ثم ( وأنذر عشيرتك الأقربين) ثم أبناء مكة (وما كان ربكم مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا) ثم إلى ما جاورها من البلدان (ولتنذر أم القرى ومن حولها ) ثم إلى البشر جميعاً ( يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) .

وقد جاء في الحديث قوله : صلى الله عليه وسلم لقريش ( قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملکوا بها العرب وتدین لكم بها العجم) فقوله صلى الله عليه وسلم هو تخطيط للمستقبل .

#### 2 - المرحلة المكية والمرحلة المدنية:

فقد جاء في السور المكية أصول الإسلام وأسسها (التوحيد والإيمان، الأعمال الصالحة، الأخلاق، قصص الأنبياء، أعمال القلوب)، وجاء التطبيق التفصيلي للشرائع والجهاد في السور المدنية واستمر هذا النهج بطريقه ما حتى حجة الوداع .

### 3 - التدرج في التشريع:

**تحريم الخمر:** قالت عائشة رضي الله عنها "إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سور من المفصل فيه ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً."

وقد وقع التحريم على أربع مراحل:

1- قوله تعالى (تتذمرون منه سكراً ورزقاً حسناً) ففرق بين السكر والرزرق الحسن من العنبر

2 - (ولئنهمما أكثروا من نفعهما

3 - (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)

4 - (إنما الخمر والميسير والأنصاب والأذالم رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه)

**فرض الجهاد:** وقد مرّ بأربع مراحل:

1. مرحلة الكف (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) .

2 - الإذن بالجهاد (إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير)

3 - قتال من قاتلهم (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)

4 - قتال المشركين كافة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)

**فرض الصلاة:** كانت الصلاة ركعتين في الغداة ومثلها في العشي، ثم نسخت بفرض الصلوات الخمس وزيدت الظهر والعصر والعشاء فأصبحت أربع ركعات.

**فرض الصيام:** عندما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة جعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام يوم عاشوراء ثم كان التخيير بين الصوم أو إطعام مسكين (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيراً لكم) .

ثم أوجبه إيجاباً عاماً جازماً (فمن شهد منكم الشهر فليصممه) .

و هنا لا بد أن نقف ونتذكر الأشياء التالية:

1 - الاعتقاد الجازم بأن تحكيم الشريعة وتطبيق أحكامها فرض واجب، ولا خيار لمسلم ولا مسلمة في ذلك. وهناك فرق بين من يؤمن بهذا الواجب ولا يعطيه إن استطاع وبين من يحرف أو يتنازل لضيغوط تأتي من هنا وهناك .

2 - الحكم على الشيء أنه حرام أو مباح أو واجب، قد انتهى ولا رجوع للتدرج في ذلك، فقد اكتمل الدين كفرض الصلاة والصيام والحج ولا نسخ في الأحكام كتحريم الخمر والميسير وتحريم الزنا ولكن في مسألة القتال والجهاد في سبيل الله، فالعلماء يفرقون بين مرحلة الضعف ومرحلة القوة فالحال التي أخبر الله فيها أن المسلمين يسمعون أذى من الذين أتوا الكتاب والمشركين، هذه الحال نسخت عند من يرى الأمر بقتالهم، ولكن ابن تيمية يقول: "الأمر بالصلح باق عند الحاجة إليه بضعف المسلم". يقول العلامة ابن الوزير: قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) لا دليل على نسخ ذلك وأمثاله، إلا عند من يتوهם التعارض، أو خفي عليه اختلاف الأمرين عند اختلاف الحالين" (القوة والضعف)، فالإسلام حتى في مرحلة التدرج وهي مرحلة لا نسخ فيها وقد كمل الدين فرق بين الأعماق والسطحيات في نفسية الأفراد والمجتمعات ، يقول الشيخ صبحي الصالح رحمه الله " فكل قضية عميقة الجذور في نفس الأفراد اتخذت شكل تقليد اجتماعي أو عرف دولي فلإسلام فيها موقف المتمهل الذي يؤمن بأن البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى، وكل قضية سطحية تنزلق إلى نفس الفرد أو الجماعة فتفسد عليها فطرتها فهي جريمة ولا يجوز السكوت عنها، فليقطع الإسلام فيها برأيه، وفي ضوء هذا نظر الإسلام إلى القتل والغش والسرقة والغصب وأكل أموال الناس بالباطل والزنافحرمها مرة واحدة تحريماً قاطعاً ( ولا تقربوا الزنا ) وكذلك السرقة (فاقتطعوا أيديهم.....) فالحال

حلال قطعاً والحرام حرام قطعاً ولكن التدرج يكون في التطبيق حسب الاستطاعة هذا مع وجود نية صادقة لتطبيق الإسلام وليس التحايل على النصوص ، ومع وجود خطة لاستكمال التطبيق عند القدرة، ولا يُؤجل شيء مقدور عليه انتظاراً للتطبيق الكامل.

فقد جاء في الحديث الشريف (إذا أمرتكم بأمر فأنتم منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) وكذلك ألا يتربى على التطبيق مفسدة أعظم من المصلحة كما صح عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: يا عائشة لو لا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة وأدخلت فيها حجر إسماعيل وجعلت لها بابين...)

#### أقوال بعض العلماء :

سئل الإمام مالك رحمة الله عن الرقيق العجم يسترون في شهر رمضان وهم لا يعرفون الإسلام ويرغبون فيه، فهل يجبرون على الصيام أم يطعمون قال: أرى أن يطعموا ولا يمنعوا الطعام ويرفق بهم حتى يتعلموا الإسلام. ويقول ابن تيمية : "فالواجب على المسلم أن يجتهد وسعه، فمن ولية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من ترك المحرمات، لم يؤخذ بما عجز عنه فإن تولية الأبرار للأمة خير من تولية الفجار".

تجربة عمر بن عبد العزيز رحمة الله عندما ولـي الخليفة دخل عليه ابنه عبد الملك وقال له : يا أبـت لم لا تنفذ الأمور، فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبـك القدر قال له عمر: لا تـعجل يا بـني، فإن الله نـم الخمر في القرآن مرتين وحرمتـها في الثالثة وأـنا أـخاف أـن أحـمل الناس عـلـي الحق جـمـلة فـيـدـفـعـوه وـتـكـونـ فـتـنـةـ) وـرـوـيـ عـنـ "لو أـقـمـتـ فـيـكـ خـمـسـيـنـ عـامـاـ ماـ اـسـتـكـمـلـتـ فـيـكـ العـدـلـ".

وقال أيضاً : "ألا وإنـي أـعالـجـ أـمـراـ لاـ يـعـيـنـ عـلـيـ إـلاـ اللـهـ، قـدـ فـنـيـ عـلـيـ الـكـبـيرـ" وـكـبـرـ عـلـيـهـ الصـغـيرـ، حتـىـ حـسـبـوـهـ دـيـنـاـ لاـ يـرـوـنـ الحقـ غـيرـهـ....." أيـ لاـ بدـ أـنـ يـقـيمـ لـهـمـ السـنـةـ وـالـعـدـلـ وـيـزـيلـ الـبـدـعـةـ وـالـظـلـمـ حتـىـ تـصـلـحـ أـحـواـلـهـمـ.

وفي العصر الحديث، وفي محاضرة للشيخ أبي الحسن الندوبي في الباكستان والتي من المفترض أن تطبق الإسلام لأنها انفصلت عن الهند على هذا الأساس يقول مخاطباً عليه القوم، ومن خلال تعليقه على آية (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرـوا بالـمـعـرـوفـ وـنـهـاـ عـنـ الـمـنـكـرـ) الملاحظ هنا: أمرـ وـنـهـيـ وـلـيـسـ التـمـاسـ وـرـجـاءـ، وـالـأـمـرـ وـالـنـهـيـ يتطلبـانـ شيئاًـ منـ القـوـةـ وـالـغـلـبـةـ وـالـقـوـةـ وـالـغـلـبـةـ لـأـتـايـانـ إـلاـ إـذـاـ كـانـ الغـصـنـ الـذـيـ نـرـيدـ أـنـ نـصـنـعـ عـشـنـاـ عـلـيـهـ (ـدـوـلـةـ إـسـلـامـيـةـ) مـتـيـنـاـ قـوـيـاـ، فـلـئـنـ كـانـ هـنـاكـ مجـتمـعـ قـدـ بلـغـ فـيـ عـبـادـةـ النـفـسـ وـالـهـوـيـ وـالـلـوـلـوـعـ بـالـمـعـاـصـيـ، فـلـأـبـرـجـيـ نـجـاحـ إـذـاـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ خـطـةـ تـرـاعـيـ وـضـعـ هـذـاـ مجـتمـعـ، إـذـاـ كـانـ التـرـبـةـ (ـكـثـيـراـ مـهـيـلاـ) فـإـنـهـ لـاـ يـتـصـفـ بـتـمـاسـكـ مـعـنـيـ، وـلـيـسـ مـعـنـيـ ذـلـكـ أـشـيـرـ بـتـأـجـيلـ تـطـبـيقـ الشـرـعـةـ وـلـكـنـ لـاـ بـدـ أـنـ نـغـيرـ موـازـيـنـ الـقـبـحـ وـالـحـسـنـ عـنـ هـذـاـ مجـتمـعـ حتـىـ يـتـحـمـلـ المـسـؤـلـيـةـ وـالـعـبـءـ الثـقـيلـ".

إـذـنـ لـاـ بـدـ مـنـ تـطـبـيقـ سـنـةـ عمرـ بنـ عبدـ العـزـيزـ، أـنـ يـقـامـ العـدـلـ وـإـصـلـاحـ أـحـواـلـ النـاسـ وـتـقـدـيمـ الـخـدـمـاتـ لـهـمـ، وـإـصـلـاحـ الـقـضـاءـ وـإـلـعـالـمـ وـنـشـرـ الـثـقـافـةـ إـسـلـامـيـةـ، ثـمـ اـنـتـزـاعـ الـفـسـادـ وـأـمـاـكـنـ الـفـسـادـ، وـإـزـالـةـ الـمـنـكـرـاتـ، وـبـيـدـاـ إـلـصـاـحـ بـإـرـجـاعـ أـمـورـ الـمـعـاـلـمـ وـالـعـقـودـ وـالـشـرـكـاتـ لـتـكـونـ مـنـسـجـمـةـ مـعـ الـشـرـعـةـ إـسـلـامـيـةـ .

وـأـمـاـ مـقـوـلـةـ (ـخـذـواـ إـلـسـلـامـ جـمـلـةـ أـوـ دـعـوـهـ) فـهـيـ صـحـيـحـةـ فـيـ جـانـبـ الـاعـتـقـادـ الـجـازـمـ بـأـنـ هـذـهـ الشـرـعـةـ هـيـ خـيـرـ لـلـإـنـسـانـ، أـيـ الـاسـتـسـلـامـ لـهـذـاـ دـيـنـ، أـمـاـ فـيـ الـتـطـبـيقـ الـعـمـلـيـ فـهـوـ مـتـعـلـقـ بـالـاسـتـطـاعـةـ وـعـدـمـ وـجـودـ الـمـوـانـعـ الـقـاهـرـةـ، وـالـاسـتـفـادـةـ مـنـ الـزـمـنـ لـقـطـعـ الـمـراـحلـ الـضـرـوريـةـ .

2 - معالم الشريعة / 139

3 - الطريق إلى السعادة / 68

المصادر: